موقف الرأي العام العربي من التسلط التركي 248 – 251هـ 862م –865م

أ. د. عـادل محي الدين الألـوسي •

تـوطئة :

تسلل الترك وهم عنصر اجنبي دخيل الى جسم الدولة العربية الاسلامية بعد القرس تحت ظـــروف طارئة املاها الواقع السياسي والعسكري بعد الاحداث المأساوية التي شهدتها بغداد في المدة من 193– 198هـ وما تمخض عنها من شعوبية نافس فيها الدخلاء الفرس العرب الاصلاء اجتماعيـــاً وسياســياً وثقافياً وزندقه تطاولت على مبادئ الاسلام الحنيف بقصد تحريفه ، وبالتالي هدمه ، ازاء ذلك جـــاءت رغبة الخليفة المعتصم بالله في تكوين جيش قوي لايحمل عقد تلك الاحداث، والترك الذين وقع اختيـاوه عليهم عنصر يحمل صفات البداوه والجندية والولاء لشخص المعتصم الذي اغدق عليهم مختلف النعـــم والرتب ، فكان ان انتقل بهم الى سامراء لجعلها عاصمة جديدة للخلافة العباسية والتي صارت مرتعـــاً

• عميد كلية الآداب والألسن ، جامعة ذمـــار

لهم ولابنائهم وتدريجياً تحول هؤلاء الاتراك ولاسيما القادة العسكريين منهم الى مراكز قوه تتدخل في شؤون الخلافة وفي صنع الاحداث وفي تقرير السياسات والمواقف حتى صارت الخلافة العباسية حبيسة اهوائهم وطموحاتهم وصراعاتهم الشخصية وهو ما انعكس على شخص الخليفة الذي لايكون إلا بموافقة هؤلاء القاده الاتراك ، ولم يبق امام الخليفة وهو في دوامه هذه الصراعات إلا الشعب بإعتباره القوة الحقيقية المساندة للخلافة في صراعها ضد التسلط الاجنبي ، وقد تحمل اهل بغداد العب الاكبر جراء هذا الصراع وآثاره السلبية في ضياع هيبة الخلافة وكثرة الفتن واضطراب الامن وغلاء الاسعار الى درجة تضور الناس جوعاً كما تروي مصادرنا التاريخية [1].

سأحاول ان اقف عند جانب من هذه المواقف التي وقفها الرأي العام العربي وهو يعلن سخطه وتذمره من التسلط الاجنبي سواء كان فارسياً او تركياً وقد حددت مقالتي بمدة قصيرة لاتزيد عن ثلاث سنوات من 248–251هـ لتكون أنموذجاً لما آلت اليه الخلافة العباسية وهي تئن من ثقل السيطرة الاجنبية التي القت بكلكلها على المجتمع العربي لتعمل فيه تمزيقاً وتفريقاً وتجزئة وانقساماً وفقراً وطبقيةً وبالتالي ضعفاً وهزالاً والله من وراء القصد .

محاولات جريئة للاستقلال :

بمقتل المتوكل على الله سنه 247هـ –861م على يد القاده الاتراك ، دخلت الخلافة العباسية في دوامة من الصراعات مع عدد من القادة المتسلطين ، يأتي الخليفة بمشورة منهم وقد ينفذ بعض رغباتهم ولكن سرعان ما ينقلب عليهم وفي نفسه عزيمه اكيدة في تقليص نفوذهم والتخلص منهم وبالتالي الاستقلال بالخلافة بعيداً عن اهوائهم ومصالحهم الشخصية وهو طموح مشروع طالما راود اذهان خلفاء بنى العباس في هذه المرحلة .

هذا الخليفة المنتصر بالله الذي اعتبره القاده الاتراك صنيعهم وطوع ايديهم يضيق ذرعاً بتصرفات وصيف وبغا الصغير والتهم أحمد بن الخصيب ، ولا أدل على ذلك من وصفه لهم بـ (قتلة الخلفاء) [2] وانه مصمم على القصاص منهم بقوله (قتلني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم)[3].

وعبر المنتصر بالله عن حاله وغلبة الترك على أمره بما نقله ابن العبري لما اجبر المعتز والمؤيد على خلع نفسيهما من ولاية العهد نزولاً عند رغبة الاتراك (اترياني خلعتكما طمعاً في ان اعيش حتى يكبر ولدي وابايع له ، والله ما طمعت في ذلك ، ولكن هؤلاء – واوماً الى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد – الحوا علي في خلعكما ، فخفت ان لم افعل ان يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما ، فمتى تريائي صانعاً ، أاقتله ؟ والله مانفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم)[4].

لم تقف الخلافة العباسية في صراعها هذا لوحدها بل ان الرأي العام العربي والاسلامي ســـاندها ، فقد تجمع العامة ومعهم الجند ببان العامة واعلنوا سخطهم واحتجاجهم على مقتل المتوكـــل علـــى الله مطالبين بقطع الايدي التي نالت منه ، ولشدة هياجهم تزاحموا وتدافعوا ومات بعضهم من جراء ذلـــك [5] . وكجزء من هذه المساندة الشعبية نطق الشعر ليرمي بسهامه اولئك المتســـلطين وعلـــى وجـــه التحديد الوزير الامعة احمد أبن الخصيب.

قـــل للخلـــيـــفة يابن عم محمد ... اشـــكـــل وزيـــرك انه ركـــــال
قـــد نـــال من اعراضنا بلســـانه ... ولرجله عنـــد الصـــدور مجـــال [6]

وبعد مقتل المنتصر بالله سنة 248هـــ/826م ، أجمع رأي القادة الاتراك الثلاثه وبغـــا الكبـــير بغـــا الصغير واوتامش ومعهم احمد بن الخصيـــــب على ان تكون الخلافة في احد ابناء المعتصم بالله ليبعـــدوا عن اعينهم شبح المتوكل ولسان حالهم يقول (متى ولينـــا احداً من ولد المتوكل طالبنا بدمـــه واهلكنـــا ولايبقى منا باقية) [7]. وعليه فقد اختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا (لاتخرج الخلافة مـــن ولـــد مولانا المعتصـــــم ، ثم بايـــعوه وهو ابن ثـــماني وعشرين سنه ، ويكنى ابا العباس)[8] وهو المســـتعين بالله (248–251هـــ/862–865م) الذي فرضت عليه مقتضيات الحال مسايرة القـــادة الاتـــراك وتلبيـــة طلباتهم الشخصـــــية التى لاأول لها ولا آخر ، وهو يردد : وما حيلة المضطر الا ركوبهـــا ، ولكـــن المستعين بالله شأنه شأن اسلافه تبرم من استفحال امرهم واستحواذهم على مؤسسات الدولة المهمـــة وفي مقدمتها بيت المال الذى صـــار ما فيه بأيديهم ، وفي نفسه رغبة في الضرب على تلـــك الايـــدي الـــتي طالت الخلافة واغتصبت منها كل شئ . ولتحقيق هذا النـــزوع الاستقلالي نفذ سياسة ضـــرب القـــادة الاتراك بعضهم ببعض لزرع الشقاق بينهم واضعافهم وبالتالي تصفيتهم والتخلص منـــهم ، فبـــدأ اولاً بايغار صدر وصيف وبغا ضد اوتامش ومن ثم مقتل الاخير [9] ، بعده جاء دور باغر الـــذي حـــل محـــل اوتامش في قيادة الجيش والذي اصطـــرع مع كتلـــة وصيف وبغا،والب اتباعة (على قتل المستعين بـــالله ومبايعة على بن المعتصم او ابن الواثق ، فنقعـــده خليفـــة حتى يكـــون الامر لنا، كما هو لهذين اللذيـــن استوليا على امر الدنيا ، وبقينا نحن من غير شئ)[10] . إلا ان الدائرة دارت عليه وقتل مما أحدث هياجـــاً اضطر معه المستعين الى ترك سامراء والانحدار الى بغداد [11] ليحتفظ لنفسه بشرعية الخلافة ويتمسك بهـــا [12] ونتيجة اصراره في عدم العودة الى سامراء تخلى عنه وصيف وبغا ، وبـــذلك كشفا عـــن حقيقتـــهما ومالا الى جنسهما التركي ، اما مـــوقف محمد بن عبدالله بن طاهر عـــــامل العراق وهـــو مـــن بقايـــا الفرس ، فقد كان انتهازياً جباناً ، فبعد ان رحب بالمستعين ووعده بالوقوف معه باعتباره الخليفة الشـــرعي

، إلا انه سرعان ما قلـب عليه ظهر المجن بعد ان رجحت كفه المعتز بالله ومعه جند سامراء ، وبعـد ان رابه موقف اهل بغداد وبعض الخراسانيه والعيارين الى جانب الشرعـية التي يمثلها المستعين ، مدافعـين عن بغداد التي حصنوا اسوارها ، وحفروا الخنادق حولها ، وفتحوا السدود باتجاه سامراء لمنـع وصـول جندها [13] .

قال حفيد طـاهر بن الحسين للمستعين : لابد لك من خلعها – أي الخلافة – طائعاًاو مكرهـا) . ازاء هذا الموقف الشعوبي الجبان اضطر المستعين بالله الى القبول بالنفي الى واسط ، ثم ان الاتراك لم يقـر لهم قرار الا بعد ان قتلوه على يد سعيد الحاجب الذي وصفه المستعين لما قدم الى واسط بقوله (قد جـاء جزار بني العباس)[15] وهكذا فقد جاءت محاولة المستعين بالله التحرريه لتسجـل موقفاً جريئاً وقفتـه الخلافة العباسية من التسلط الاجنبي التركي ، عبأت من خلاله الرأي العام العربي ولاسيما اهل بغـداد الذين تحملوا القسط الاكبر من تبعات هذا الصراع واثاره .

الرأي العام العربي يشجب التسلط التركي :

كرد فعل للاحداث التي المت ببغداد على ايدي القادة الاتراك وما اكتنف هذا الصراع الدمـوي من مواقف شعوبية وانتهازية ومواقف اخرى مشرفة وقفها اهل بغداد ، فقد هب الرأي العـام العـربي معرباً عن شجبه للانتهاكات المفضوحة التي قام بها الجند الاتراك بحق العرب اولاو بأهل بغداد ثانياً ، مـن خلال حـركات ووثبات اتخذت طابـعاً شعبياً معادياً للتسلط الاجنبي ، ففي سنه 249هـ ، اتخذ اهـل بغداد مـن مقـتل عمـر بن عبـدالله الا قطـع وعلي بن يحي على يد الروم (وكانا نابين مـن انيـاب المسـلمين ، شديداً بأسهما ، عظيماً دفاعهما عنهم في الثغور التي هما بها)[16]، فرصة لاعـلان سخطهم على سيطرة الاتراك وتلاعبهم بمصائر الناس ، وقد عـبر الطبري عن ذلك بقولـه : (وعظـم مقتلهما في صدورهم مع قرب مقتل احدهما من مقتل الاخر ، ومع ما لحقهم مـن استفظاعهم مـن الاتراك قتل المتوكل واستيلاءهم على امور المسلمين ، وقتلهم من ارادوا قتله من الخلفاء ، واسـتخلافهم من احبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولانظر للمسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بـالصراخ والنداء بالثغير وانضمت اليها الانباء الشاكرية ، تظهر انها تطلب الارزاق ففتحوا سجن نصر بن مـلك ، واخرجوا من فيه)[17] . وكلهم عزيمة على محاربة الروم ومقارعة الاجنبي الذي تسلط على رقاب الناس.

اما اهل سامراء فقد وثب نفر منهم معلنين تذمرهم وكرههم للاجنبي ففتحوا السجن بها واخرجـوا من فيه وتصدى لهم (وصيف وبغا ومعهم عامة الاتراك ، فقتلوا من العامة جماعة ، والقي على وصيـف قدر مطبوخ فأمر وصيف النفـاطين ، فقـذفوا ما هنـالك من حوانيت التجار ومنازل النـاس

بالنار)[18] وقد أكد الطبري هذه الحادثة بقوله : (فانا رأيت ذلك الموضع محترقاً وذلك بسامراء عند دار اسحاق) .[19]

وفي نفس السنه تظلم يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسن العلوي ، محتجاً على غلظة واهانه اصابته على يد عامل الكوفة من قبل محمد بن عبدالله بن طاهر ، واتخذها مناسبة لاعلان معارضته للتسلط التركي ولتردي الاوضاع الاقتصادية على ايديهم ،فجمع جمعاً كثيراً من الاعراب من أهل الكوفة والانبار وتمكن من الاستيلاء على مافي بيت مال الكوفة والتي قدرت بألف وسبعين درهم ، وفتح سجنيها واخرج ما فيهما وسار بهم الى بستان قريب من الكوفة واتخذها وكراً له (واجتمعت على نصرته جماعة من الاعراب واهل الطفوف والسيب الاسفل وظهر واسط)[20]. ومع ان عامل العراق محمد بن عبدالله بن طاهر ، تمكن من قتله واسر اعداد من اتباعه الا انها كانت وثبة عربية معادية للتسلط الاجنبي ، ولا ادل على ذلك من الحقد الدفين لاولئك الغرباء الذين مثلوا بجسده الطاهر واذلوا كل من ناصره ووقف الى جانبه ، روى الطبري : (انه لما ورد رأس ابي الحسين الى دار محمد بن عبدالله بن طاهر ، وقد تغير فطلب من يقور ذلك اللحم ويخرج الحدقة والغلصمة فلم يوجد ، وهرب الجزارون الاحد عمال السجن الجديد وكان من الخرمية الذباحين يقال له سهل بن الصفدى ، فإنه حاول ان ينصبه بباب الجسر الا ان الناس من اهل بغداد منعوه من ذلك ولسان حالهم يقول : (22)

يابني طاهر كلوه وبيناً ... إن لحم النبي غير مري

ان وتراً يكون طالبه الله ... لوتر نجاحه بالحري

وفي الاردن من نفس السنه احتج نفر من اهلها وتجمعوا حول رجل من بني لخم ، تمكن من جني الخراج والصمود مع اتباعه بوجه المحاولات التي استهدفت القضاء على حركته المعادية للتسلط التركي الى ان اقدم مزاحم بن خاقان في جيش من الاتراك تمكن من تفريق شمل المحتجين ونفى معظمهم الى خارج الاردن[23] .

اما أهل حمص ، فقد اثارهم الاحداث التي تواترت على اسماعهم من هنا وهناك وبالذات ما حدث في بغداد على يد الجند الاتراك، فوثبوا على عاملهم التركي كيدر بن عبدالله الاشروسني بحجة سوء المعاملة التي عاملهم بها ، ولتهدئة هياجهم عين والياً جديداً هو الفضل بن قارن الذي كان مصيره مثل سابقه ، فقد قتل سنه 249هـ[24] وتقدم اهل حمص الى دمشق وحاربوا عاملها التركي توشري بن طاجيل الذي حاول الالتفاف حول حركتهم الا انه لم يتمكن ، واستمر الحال لصالحهم الى ان حاربهم موسى بن بغا الكبير في جيش تعداده سته الاف من الجند الاتراك وتمكن منهم[25] . وقد استمرت حركات مدن الشام تترى واحدة بعد الاخرى ،ففي المعره تزعم يوسف بن

ابراهيم التنوخي المعروف بالقصيص جماعة من تنوخ وسارهم الى قنسرين وتحصن بها وناصرته قبائل بني كلب في حمص ، ولم يهدا لهم بال الا بعد ان عين القصيص واليا على اللاذقية وما جاورها بعد ان عزل محمد بن المولد التركي عنها [26].

واحتج عرب ديار ربيعه بزعامة ابو العمود الشاري على سوء الاوضاع في ظل السيطرة الاجنبية ، وفي طبرستان سيطر الحسن بن زيد وناصره اهلها لسوء معاملة لحقت بهم من عاملها محمد بن اوس البلخي الذي(فرق ولده في مدن طبرستان وجعلهم ولاتها ، وضم الى كل واحد منهم مدينة منها ، وهم احداث سفهاء قد تأذى بهم وبسفههم من تحت ايديهم من الرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبدالله بن طاهر – وهو اخو محمد بن عبدالله عامل العراق انذاك وكان على طبرستان – سفههم وسيرهم فيهم وغلظ عليهم سوء الرهم فيهم ...)[27].

واجتمعت الى الحسن بن زيد مع طبرستان الرى الى حد همدان [28] . وفي الحجاز ، قام عربها من قبائل بني عقيل بحركات معادية للتسلط الاجنبي التركي وقطعوا الطريق بين جده ومكه وقتلوا حاكمها. [29]

ولما خلع المستعين بالله عن الخلافة ، احتج عامل فلسطين عيسى بن الشيخ ولم يعترف بالخليفة الجديد المعتز بالله الذي نصبه القادة الاتراك بعد ان خلعوا المستعين . [30]

وقف الشعر الى جانب الشرعية التي اغتصبها الاتراك فجاء شعرا ساخرا ناقما ، من ذلك قول أحدهم : [31]

خلع الخلافة احمد بن محمد ... وسيقتل التالي أو يخلع
ويزول ملك بني ابيه ولا يرى ... احد تملك منهم يستمتع
ايها بني العباس إن سبيلكم ... في قتل أعبدكم طريق مهيع

وقال آخر : [32]

أني أراك من الفراق جزوعا ... أضحى الإمام مسيرا مخلوعا
وتجانف الأتراك عند تمرد ... أضحى وكان ولا يراع مروعا
فنزا بهم ونزوا به وتعاورت ... أيدي الكماة في الرؤوس نجيعا
فأزاله المعذار عن رتب العلا ... فثوى بواسط لا يحس رجوعا
باع بن طاهر دينه عن بيعة ... أمسى بها ملك الإمام منيعا
خلع الخلافة والرعية فاغتدى ... من دين رب محمد مخلوعا

الهـــوامش

(1)– الديار بكري: حسين بن محمد (ت842هـ) (تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس) بيروت بلا ج2–ص24.

(2)– ابن العمـــراني : محمـــد بن علـي بن محمـــد (ت 580هـ).(الانباء في تاريخ الخلفاء) لايـدن 1973، ص122.

(3)– ابن الكازروني : ظهير الدين على بن محمد البغـدادي (ت697هـ) (مختصر التاريخ في أول الزمان إلى منتهى دولـة بني العباس) بغداد 1970 ، تحقيق د.مصطفى جواد ، ص19

(4)– ابن العبري : غريغورس ابو الفرج بن هارون الملطي (ت 685هـ) (تاريخ مختصر الدول) المطبعـة الكاثوليكيـة بيروت 1958، ص146.

(5)– ابن الاثير: عـز الديـن بـن الحسـن عـلـى بـن الحسـين (ت630هـ) (الكـامل في التـاريخ) تصحيح عبدالوهاب النجار ، مصر 1357هـ ج5،ص306

(6)– المسعودي: ابوالحسن على بن الحسين (ت346هـ) (مروج الذهب ومعادن الجوهـر) دار الاندلـس 1981 ج4 ،ص48 . ايضاً ابن الطقطقي : محمد بن على بن طباطبا (ت 709هـ) . (الفخري في الاداب السلطانية) بيروت 19676ص 239.

(7)– السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت911هـ) (تاريخ الخلفاء ...) تحقيـق محمـد محـي الديـن عبدالحميد ، بغداد 1983،ص358.

(8)– الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ) (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق محمد ابو الفضـل ابراهيـم ، دار المعارف بمصر سنة 1974ج9 .ص256.

(9)– المصدر السابق نفسه ، ج9،ص264.

(10)– المصدر السابق نفسه ، ج9،ص–280279.

(11)– مسكويه :ابوعلى احمد بن محمد (ت 421هـ) (تجارب الامم ..) ج6 ،لايدن 1871، ج6 ،ص576.

(12)_ فاروق عمر فوزي : الدكتور ، (الخلافة العباسية) دار الحكمة بغداد 1986، ص365.

(13)– المصدرالسابق نفسه . العيارون والشطار– طوائف شعبية امتهنت النهب واللصوصيـة ، انتظمـت فى حركـات معارضة اسلوبها الفوضى وطابعها السرية ، وللمزيد يراجع كتابي (الرأي العام في القرن الثالث الهجري) بغـداد 1987، ص91 وما بعدها .

(14)–الطبري ،ج9، ص344.

(15)_ ابن الجوزي : جمال الدين بن الفرج(ت 597) . (المنتظم في تاريخ الملوك والامم) حيدر ابـاد 1357هـ ، ج5 ص72.

(16)– الطبري : ج9 ،ص262.

(17)– المصدر السابق نفسه .

(18)– المصدر السابق نفسه ، ج9،ص262–263.

(19)– المصدر السابق نفسه ، ج9،ص263.

(20)– المصدر السابق نفسه ، ج9،ص267.

(21)– المصدر السابق نفسه ، ج9،ص269.

(22)- المصدر السابق نفسه ، ج9،ص270.

(23)- اليعقوبي : احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب (ت284هـ) (تاريخ اليعقوبي) النجف 1358هـ ج3،ص219.

(24)- ابن كثير : عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر (ت744هـ) (البداية والنهاية في التاريخ)
مطبعة السعاد بمصر بلا ج11 ص2.

(25)- الطبري : ج9 ،ص259.

(26)- اليعقوبي : ج3 ص220 ومابعدها.

(27)- الطبري : ج9 ص271.

(28)- المصدر السابق نفسه ج9ص275.

(29)- ابن الاثير : ج5،ص330.

(30)- اليعقوبي : ج2،ص222.

(31)- الطبري : ج9 ،350 .

(32)- المصدر السابق نفسه ج9، ص351.